الفن الإسلامي المعماري ودوره في حفظ التراث الإسلامي في الأندلس

(مسجد قرطبة أنموذجًا)

سهام ميلاد عماري*

تسلم بتاريخ 2023.01.22 قبل بتاريخ 2023.02.20 نشر بتاريخ 2023.03.06

الملخص:

يحتل مسجد قرطبة في تاريخ الهندسة المعمارية الإسلامية مكانة حاسمة، فالنمو المستمر الذي عرفه مسجد قرطبة كان يختصر وحده التاريخ التطوري للفن العربي الإسلامي، سواء في مبادئ العمارة أو في الفن الزخرفي، وهذا النمو هو تطور بالمعنى المباشر للكلمة، إذ أن مسجد قرطبة قد جرى توسيعه أربع مرات حتى بلغ درجة من الضخامة لم يبلغها من قبل، سوى مسجد المتوكل في سامراء، وإن جميع القادة الأمويين في الأندلس تقريباً اهتموا بأمر المسجد وعملوا على بنائه، ولكن البعض منهم تركوا فيه أعمالاً جليلة، أولهم عبد الرحمن الملقب بالداخل، المؤسس الأول لهذا الصرح المعماري العظيم عام (785م - 169هـ) في مدينة قرطبة بعد أن غدت عاصمة الأمويين في الأندلس.

الكلمات المفتاحية: الفن، المعمار الإسلامي، قرطبة، الأندلس.

مقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد

تناول هذا البحث الفن الإسلامي المعماري في الأندلس، حيث ساهم الفن المعماري الإسلامي في حفظ التراث الإسلامي، كما اهتم الخلفاء والأمراء بالعلماء والصنّاع والفنانين، واهتموا بفنون العمارة الاسلامية وطبقوها في بناء المدن والأسواق والقصور، وأيضاً المساجد التي كان لها النصيب الأكبر من الاهتمام عن طريق فن النقش والزخرفة .ولعل أهم المشيدات العمرانية في الأندلس، المسجد الجامع في قرطبة، ويشغل هذا المسجد مكانة في تاريخ الفن الإسلامي فهو واحد من أعظم الفنون المعمارية في العالم.

* قسم التاريخ- كلية التربية- جامعة الزيتونة.

وتكمن أهمية دراسة الفن المعماري الإسلامي عل اعتبار المارة الإسلامية بناء تفرّد به المسلمون وأصبحت بمثابة هوية لهم، وكلما زاد عمرها زادت هيبة ووقار ورونق، كما تمثل أهمية دراسة المعالم الإسلامية في إدراك دورها في المشاركة الإيجابية في بناء المجتمع وتنمية الحاضر واستشراف المستقبل من خلال هذه المعالم.

وشكّلت العديد من تقنيات الفن الإسلامي في الأندلس أساس الفن في الثقافة الإسلامية الاسبانية، واستخدم الملوك الاسبان الفنانين الحرفيين المسلمين في بناء قصورهم ومعالم دولتهم، وأظهر هؤلاء الفنانين المدجنين مؤثراتهم الإسلامية في الكثير من أعمالهم الفنية والمعمارية، وهذا الفن المدجن هو أحد إبداعات المسلمين في المجال المعماري.

إن موضوع الدراسة (**الفن الاسلامي المعماري ودوره في حفظ التراث الاسلامي في الاندلس – مسجد قرطبة أنموذجًا–**) يحتاج إلى دراسة جادة لارتباطه بفنون شعوب أخرى أثرت فيه وتأثرت به وعاشت معه، فجعلته يتمازج وينصهر فيها ويتأثر ببيئتها، ما نتج عن ذلك التمازج فن مميز وفريد يستحق الدراسة لأهميته التاريخية والفنية .

وتهدف الدراسة إلى إبراز دور الفن الإسلامي المعماري في إحياء التراث الإسلامي الأندلسي.

واستخدمت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي لهذه الفترة التي حددت من القرن الثاني عشر إلى الخامس عشر الميلادي.

وجاءت تقسيمات البحث وفق تسلسل الأحداق والوقائع وهي كالآتي:

أولاً: الفن المعماري الإسلامي في الأندلس

1- التعريف بالفن المعماري.
2- مميزات الفن المعماري الإسلامي الأندلسي.

ثانياً : الطراز المعماري الإسلامي في قرطبة .

1- الطراز المعماري لمسجد قرطبة .
2- دور الخط العربي والزخرفة الإسلامية في عمارة مدينة قرطبة .
3- الدور العلمي والثقافي للفن المعماري الإسلامي في مدينة قرطبة .

وختم هذا بمجموعة من النتائج وجاءت وفق معطيات وقضايا.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

أولاً : الفن المعماري الإسلامي في الأندلس :

1- التعريف بالفن المعماري الإسلامي

اختلف الفن الإسلامي عن الفنون الأخرى المعروفة في العالم في كثير من مظاهره، فقد اعتبر البعض الفن الإسلامي بمظاهره المختلفة فناً دون مضمون، أو دون قاعدة معينة تحكمه، فهو في نظرهم فن الغرض منه إضفاء شكل جمالي أو تغطية مساحات لا غير، فيكون في هذه الحالة نمطاً حرفياً متكرر للزخرفة لا إبداع فيه[1].

كما أن هناك من اعتبر الفن الإسلامي هو نقطة التحول من الظلمة إلى النور، ومن الكثرة إلى الوحدة، ومن الظاهر إلى الباطن، إذ أن الفن الإسلامي يستمد مرجعيته من رؤية توحيدية خالصة تحاكي الجمال الإلهي[2] .

أُطلقت تسميات كثيرة على الفن الإسلامي، بالرغم من وحدة مضمونه، فمنهم من سماه الفن المغربي وهي تسمية تصلح فقط لفن شمال إفريقيا، وفنون الحضارة الإسلامية في الأندلس، كما أُطلق عليه الفن العربي؛ لذلك كانت تسميته بالفن الإسلامي هي التسمية الدالة على الفن الذي انتشر في جميع الدول الإسلامية .

بالإضافة إلى الفن الإسلامي المعماري باختلاف أساليبه وطُرزه وأنواعه إلا أنه تجمعه وحدة الملامح العامة[3].

الفن الإسلامي فنٌ أصيل تكمن أصالته في كونه قد استطاع أن يعبّر بوضوح تام عما أراد أن يعبّر عنه، أي توفير إطار ملائم لممارسة الشعائر التي فرضها الإسلام، أضف إلى ذلك أن هذا الاطار عرف كيف يتطور وفقاً لتطور المجتمعات الإسلامية ذاتها، والتي رافق تطورها بدوره التمثل التدريجي لمضمون الاسم، وقد تجلت هذه الأصالة بقدر ما استطاع الفن الإسلامي التعبير به عن عظمة المجتمعات الإسلامية، وعن المتاعب التي قاستها في آن واحد خلال تاريخها الطويل، ومن خلال ذلك يمكن القول بأن الفن الإسلامي لا يعني الفن المتصل بالجانب العبادي والشعائري تحديداً، لكنه يلوح جلياً في تمحور الابداعات الفنية الإسلامية في معالم دينية ومدنية على حدٍ سواء، سواء كانت مساجد أو مدارس أو أسواقاً أو قصور[4].

1 - محمود إبراهيم حسين، الأرابيسك، دراسات في الحضارة العربية والفنون الإسلامية، مكتبة الفلاح، بيروت، ط1، 1996م، ص201 .

2 - جوفاني كوراتولا، الأطوار الكبرى للفن الإسلامي، جاكابووك، ميلانون، 2018، ص331 .

3 - محمود إبراهيم حسين، الارابيسك، مرجع سابق، ص87 .

4 - حيّان صيداوي، الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية، دار المتنبي، بيروت، ط1، 1992، ص223 .

2- مميزات الفن المعماري الإسلامي في الأندلس:

امتازت العمارة الإسلامية بتنوع من الفن التشكيلي الذي اندمج عضوياً بالعمارة، أي فن الزخرفة، واحتفظ المعماريون المسلمون باتجاههم الفني ومهاراتهم الصناعية ذات الطراز المعماري الإسلامي، رغم ما تعرض له المنتوج الفني في حقبة حرب الاسترداد الاسبانية من إتلاف متعمد مسّ التراث الديني في مسعى لطمس كل ما هو إسلامي[1].

كما تميز مفهوم هندسة العمارة بخلق كتلة إنشائية لتحقيق احتياجات سكانية تتوافر فيها الراحة والأمن والجمال، ويمكن القول بان الفن الإسلامي اعتمد على عدد من الثوابت مثل المناخ والعقيدة والعادات، ومن خلال ذلك استطاع المعمار العربي والإسلامي ان يخلق شكلاً فنياً عالمياً يحمل معناً روحياً وجمالياً هو: القوس والعقد والقبة[2].

ويتجلى بوضوح تنوع الصنّاع المعماريين في أشغال الخشب وصناعة الفخار والقيشاني والمنسوجات الحريرية، ولا تزال المصطلحات الفنية للنجارة في إسبانيا عربية إلى حد الآن، كما تتجلى عبقريتهم في أسمى مراتبها في الفخار والخزف العربي الذي يُصنع للبابوات ولكبار العائلات الاسبانية والبرتغالية والإيطالية والفرنسية.

فكان لتشجيع الحكام والأمراء أثر كبير في ازدهار العمارة والفنون الإسلامية الأخرى، كما تشهد على ذلك آثار كبيرة أقيمت طبقاً لرغباتهم وتوجيهاتهم، بغض النظر عن جنسية الفنانين الذين أقاموها لهم[3].

كما أن الهندسة المعمارية الأندلسية نشأت بامتزاج الفن الروماني مع الفن الإسلامي، حيث تتجلى خصائص كل منهما في عدة عناصر كالأسقف المقببة والباحات المنزلية المزيّنة والأرضيات ذات الألوان الزاهية، كما يتميز الديكور الأندلسي -أيضاً- بفن الزخرفة العربية أو ما يسمى ديكور الآرابيسك[*].

1 - وجدان علي بن نايف، الامويون، العباسيون، الأندلسيون، سلسلة التعريف بالفن الإسلامي، دار البشير، عمان، 1988، ص270 .

2 - عز الدين المناصرة، لغات الفنون التشكيلي، قراءات نظرية تمهيدية، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2005، ص9.

3 - جوفاني كوراتولا، مرجع سابق، ص102 .

* - الآرابيسك: عبارة عن أشكال هندسية وأنماط تتزين بها الجدران والأسطح ، وأقل ما يوصف به أنه (علم) أبدعه الفنان العربي واهداه لتاريخ الفن، وهو عبارة عن سلسلة متكررة من الأشكال الهندسية والنباتية، مصحوبة بأشكال الطيور، والحيوانات، والخط العربي أحياناً، انظر: محمد عبدالعزيز مرزوق، الاسم والفنون الجميلة، مكتبة الأسرة، 2015م، ص 56 .

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

ثانياً: طراز الفن المعماري الإسلامي في مدينة قرطبة:

كانت الأندلس ولفترة طويلة من الزمن المركز الرئيسي للثقافة الفنية من مغرب العالم الإسلامي، ولقد ترك الطراز المعماري الإسلامي الكثير من الآثار من خلال المدارس والمساجد والقصور.

فمدينة قرطبة هي أول مركز للثقافة العربية والحضارة الإسلامية في الأندلس، وفي هذه المدينة وفي معاهد الثقافة والفكر ظهر فيها عدد من مفكري الأندلس وفنانيها وفلاسفة وشعراء وغيرهم من أهل العلم والأدب والشعر والزجل والغناء.

ومدينة قرطبة لم تكن مجالس أدب وشعر ومواقف عشق وغزل فحسب؛ بل كانت تاريخاً وحضارة كانت زهوة عزٍّ ومدنيّة[1] .

وهي مدينة إسبانية عريقة ترجع إلى العهد الروماني، وهي تقع على سفح جبال قرطبة الجنوبي على منحنى الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير، وتبعد قرطبة عن مدريد مسافة 400 كيلومتر جنوب غرب، وتبعد 140 كيلومتر إلى الشمال الشرقي من اشبيلية، و 168 كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مدينة غرناطة، وهي اليوم مدينة أوروبية حديثة، ولكن جمال مبانيها العصرية يظل أقل أهمية في نظر الزائر .

وعندما رحل عبد الرحمن الأول إلى بلاد الأندلس وثبت هناك دعائم الامارة الأموية فيها، اتخذ من مدينة قرطبة حاضرة لإمارته وبنى فيهات القصر والمسجد الجامع .

وازدهرت قرطبة على يد هشام عبد الرحمن الداخل الذي تميزت فترة خلافته بالمباني الفخمة والبساتين النضرة، كما أنشأ فيها العديد من القصور، وأنشأ فيها الحدائق والرياض الفيحاء وكانت بها مجموعة من البساتين الواسعة التي زرعت فيها أغرب أنواع النباتات والأشجار، وأبرز الآثار المعمارية الإسلامية في مدينة قرطبة كان المسجد الجامع بقرطبة الذي تم بناؤه في (186هـ - 802 م)، الذي انفق عليه حوالي 8000 دينار، حتى أصبح من أروع آثار المسلمين في غرب العالم الإسلامي، فمنهم من غطى السواري والحيطان بالذهب، ومنهم من أضاف إلى البناء مئذنة، ومنهم من زاد في رقعته ليتسع عدد كبير من المصلين[2].

وفي عام (169هـ - 705م) بنى عبد الرحمن الأول مسجده في قرطبة التي غذت عاصمة الأمويين في الأندلس، لعدة قرون حيث بنى في مكان كنيسة مسيحية ويعتبر هذا المسجد دون شك معجزة الفن الإسلامي، فهو أضخم عمل معماري قام به العرب في الشرق والغرب على حد السواء[3] .

1 - عيسى الناعوري، في ربوع الأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1978م، ص61 .

2 - محمود إبراهيم حسين، مرجع سابق، ص84-85.

3 - حيان صيداوي، مرجع سابق، ص131 .

يحتل مسجد قرطبة في تاريخ الهندسة المعمارية الإسلامية مكانة حاسمة، تشبه المكانة التي يحتلها كل من جامع دمشق، وجامع القروان، وجامع سامراء.

والنمو المستمر الذي عرفه مسجد قرطبة على مدى قرنين من الزمن يختصر وحدة التاريخ التطوري للفن العرب الإسلامي، سواء في مبادئ العمارة أم في الزخرفة وهذا النمو هو تطور بالمعنى المباشر للكلمة .

1- الطراز المعماري لمسجد قرطبة :

يعتبر مسجد قرطبة أضخم عمل قام به العرب في الشرق والغرب على السواء، فإن مساحة الصحن المسقوف بلغت (4868) متراً مربعاً، فإذا أضفنا إلى ذلك الفناء غير المسقوف وهو بقية صحن الجامع، يحيط به سوره كانت مساحته (12189) متراً مربعاً، وعدد السواري أي الأعمدة الباقية إلى اليوم تزيد عن 1200 سارية، ومحراب هذا المسجد أروع محاريب الجوامع الأثرية الباقية إلى اليوم[1] .

وكانت هيئة مسجد قرطبة في البدء، هيئة متواضعة تنظيمه العام مستوحى من تصميم جامع دمشق مع بعض الفروقات البسيطة ، وتشير بعض الوثائق والكتب على عدم وجود أي بهو في الفناء أو أي قبة أو مئذنة، وهي عناصر ميّزت حتى هذا التاريخ الهندسة المعمارية في الإسلام وأياً كان الأمر فإن مسجد قرطبة في حالته الأولى يلتقي مع التصميم الأساسي العام للمسجد العربي على الرغم من تواضعه الذي يعكس الامكانيات المحدودة لخليفة قرطبة[2].

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الثاني توطدت أركان الدولة الأموية في الأندلس فأقدم الخليفة الجديد على القيام بأعمال التوسعة للمسجد وذلك تلبية لحاجات الاعداد المزايدة من المسلمين.

فبدأ العمل في المسجد عام (234هـ- 848 م) فزيدت قاعة الصلاة طولاً فاتسعت بمقدار نصف مساحتها الأولى، فأصبحت أكبر قاعة للصلاة في الغرب الإسلامي، ايضاً في عهد الخليفة هشام الأول أضاف مئذنة مربعة الشكل، حتى تم تبديلها بمئذنة أكبر منها حجماً في عهد عبد الرحمن الثالث، كما تم توسيع الفناء قليلاً باتجاه الشمال [3] .

1 - عيسى الناعوري، مرجع سابق، ص61.

2 - حيان صيداوي، مرجع سابق، ص131-132.

3 - حيان صيداوي، مرجع سابق، ص ص131-132.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

أما في فترة حكم المستنصر ثامن أمراء بني أمية في الأندلس الذي شرع في مواصلة بناء وتوسيع المسجد، أما المنصور بن عامر عندما تولى الحكم في الأندلس أضاف عليه 245 عموداً وقوساً تختلف بعض الاختلاف عن بقية أعمدة الجامع وأقواسه، حتى أصبح مسجد قرطبة أكبر مساجد المسلمين فقد بلغ طوله 330 ذراعاً وعرضه 230 ذراعاً[1] .

ومركز المسجد كان محرابه وهو عبارة عن تجويف نصف دائري يؤدي مهمة تعيين اتجاه الكعبة، ولكن محراب قرطبة فريد من نوعه فقد كان عبارة عن حجرة صغيرة من غير نافذة وعلى بعد مسافة يبدو وكأنه فوهة أكثر مما يبدو تجويفاً ويبدو وكأنه مصدر حضور مقدس أو مدخلاً إليه على الأقل فكان هذا المحراب في صورة تحفة فنية رائعة.

وقد أمر الخليفة الحكم عام (349هـ- 961م) ببنائه حيث أمر الامبراطور البيزنطي بأن يرسل مختصاً بالفسيفساء يمكنه ان يزخرف المحراب بالطريقة نفسها التي زخرف بها الوليد الأول مسجد دمشق، وقد درّب المختص بالفسيفساء عمالاً محليين بشكل جيد حتى فاقوه مهارة في الوقت الذي جاء فيه الناس من كل انحاء الأندلس للمشاركة في زخرفة هذه التحفة الفنية.

ويمكن القول إن جوهر الأمر يكمن في أن الحكم أراد أن يخلق تحفة فنية أثرية فذّة، تقليداً منه لمسجد دمشق الكبير أول مسجد ضخم في العالم الإسلامي[2] .

كما عمل الخليفة الحكم الثاني على توسعة قاعة الصلاة مرة أخرى مما جعل مسجد قرطبة يضاهي بفخامته فخامة الآثار المسيحية الأكثر شهرة فقي أوروبا .

وأضاف قبتين اثنتين للقباب فقد امتاز الجامع بعدة قباب ومن اشهرها قبة الوضوء متعددة النوافذ حيث كان عدد نوافذها حوالي ستة عشرة نافذة[3] .

كما ألحق التغيير بالمحراب ذاته فغدا أكثر عمقاً في شكل مثّمن الاضلاع داخل دائرة يبلغ قطرها ثمانية أمتار، فأصبح بذلك غرفة صغيرة قائمة بذاتها الأمر الذي جعل منه نموذجاً فريداً من نوعه[4] .

1 – عيسى الناعوري، مرجع سابق، ص62 .

2 – عبدالكريم محفوظ، عبقرية الحضارة العربية، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1990، ص ص 180-181.

3 – السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986، ص25 .

4 – حيان صيداوي، مرجع سابق، ص132 .

وهذه القبب إضافة إلى المحراب، ميّزت المحور المركزي للمسجد وهو المحور العزيز على قلوب الأمويين والأغالبة، وعلى جانبي المحراب عشر غرف ، داخل سماكة الدعامة، تزود المسجد بما هو ضروري من التوابع ليقوم بوظيفته اليومية كمسجد يحتل مركزاً اساسياً في خلافة قرطبة[1] .

وكانت للقبة سمة جديرة بالاهتمام ، هي زخرفة سطحها بالفسيفساء الذي يعتبر آخر مثال عن فسيفساء الجدران في العالم الإسلامي، فكان موضعها محدد بالكتابة والنباتات المجردة والخطوط البسيطة، وعلى كل حال يمكن القول إن لهذه التصاميم مغزىً شرعياً، شانها بذلك شأن المناظر الطبيعية المعمارية في دمشق، فالموضوعات النباتية والقوام الغني للزخرفة قد يكون محاكاة لإطار فردوسي بالمعنى الذي هو بعيد عن اي حقيقة معروفة[2] .

أما بالنسبة للمئذنة فإنها كانت مربعة الشكل غنية الزخرفة تعلوها طبقة صغيرة أصغر منها حجماً وربما طبقات اثنتان، مما يعطيها طابعاً أموياً واضحاً، مما أضيف إلى ذلك الطابع من ثمار التطور خصوصاً على صعيد الزخرفة[3].

وترى الباحثة أن مسجد قرطبة يختصر وحدة تطور الفن العربي الإسلامي ومبادئ العمارة أو الزخرفة، ويرجع الفضل في ذلك إلى عبد الرحمن الداخل في بناء هذا المعمار الضخم الذي كان قد أخذ نفس شكل وتصميم المسجد الأموي.

ويمكننا القول بأن مسجد قرطبة يبدو إجمالاً وكأنه خلاصة التطور في الهندسة المعمارية الإسلامية، حيث تميز بمرحلة النضج التي رافقت أعمال التوسيع المتتالية، في حين نلتمس بصمات المسجد الأقصى خصوصاً بالنسبة للأجنحة الرأسية مع جدار القبلة وحيناً نلتمس بصمات جامع دمشق، وحيناً آخر نلاحظ تأثير الهندسة المعمارية القيروانية.

إن جميع هذه المؤثرات تتجلى في تناسق رائع لنسبية الأبعاد وتكشف بعض الابتكارات الجمالية المدهشة دون المساس بالوظائف الأساسية لمكان العبادة[4] .

1 – نفس المرجع ونفس الصفحة.

2 – عبدالكريم محفوظ، مرجع سابق، ص182 .

3 – حيان صيداوي، مرجع سابق، ص134 .

4 – نفس المرجع، ص135 .

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

2- دور الخط العربي والزخرفة الإسلامية في عمارة مدينة قرطبة

تميز الفن الإسلامي المعماري بالخط التزييني والتصميم الزخرفي وتأثر كثيراً بالأفكار الكلاسيكية، كما يميز معظم الزخارف المعمارية موضوعين الأول منها هو الكتابة التي تظهر أحياناً على شكل مخطوطات صغيرة محوكة ضمن الزخرفة وأحياناً أخرى على شكل تصريحات محددة تحيط بالنصب كله، وهذه المخطوطات إما عبارة عن نصوص دينية (من القرآن) وإما أن تكون لوائح للألقاب الأميرية الطنانة .

أما الموضوع الثاني فإنه يتألف من تصميمات تعطي مظهراً عمرانياً محدداً أو تبدو اعتباطية بحتة في أحيان أخرى[1] .

وكانت الأندلس ميداناً تتنافس فيه العمارة الإسلامية مع العمارة الأوروبية فأتت بحلول إبداعية في عمارة المساجد، وظهرت في عناصر معمارية جديدة مثل العقود المتجاورة والتوسع في استخدام العقود المخصصة المغطاة بزخارف رائعة مبهرة للعين، حيث بلغت هذه الزخارف قمة الابهار في ابتكار طراز الحمراء، وتمثل الابهار فيه بالسيطرة على المادة الجصية واستخدام التخريم والتفريغ في الزخرفة على العقود والقبوات كوسيلة لتخفيف الثقل عليها، ومن عناصر الابهار هنا توزيع الزخرفة توزيعاً مدروساً في إطارات وأشرطة وأفاريز وحشوات[2] .

وبما أن الكتابة هي أحدى أهم الطرائق الزخرفية والخط اليدوي في الزخرفة والنحت، فإن مخطوطات القرآن الكريم كانت أفضل موضع لشهرة فن الخط والحفاظ عليه، علاوة على ذلك استعملت تشكيلة واسعة من تقنيات الزخارف كي تزيد من جمال أي كتاب من الكتب[3].

ومن خلال العمارة الإسلامية دخلت عناصر معمارية وزخرفية في أوروبا، لعل ذلك يتجلى بوضوح في مسجد قرطبة، فقد تمت إضافة العديد من الزخارف المشتقة من اللغة العربية، حيث الزخارف المستوحاة من الأصداف البحرية التي تملأ سقف المحراب وأبراج الكنائس في مدينة طليطلة التي يبدو عليها الشبه والتقارب من مآذن المغرب والأندلس[4] .

1 – عبدالكريم محفوظ، مرجع سابق، ص157.

2 – محمود إبراهيم حسين، مرجع سابق، ص191 .

3 – مجموعة باحثين، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، مركز تبادل القيم الثقافية مع منظمة الأمم المتحدة، ص30.

4 – صلاح خالص، اشبيلية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية تاريخية، دار الثقافة، بيروت، 1965م، ص97 .

وفي الأندلس يتجمع أهم الآثار العربية التي تحظى بالاهتمام الأكبر من قِبل السياح والزوار من جميع أنحاء العالم، وزهرة هذه الآثار هي في قصر الحمراء في غرناطة وجامع قرطبة ومدينة الزهراء في قرطبة ومئذنة الخير والقصر العربي وبرج الذهب في اشبيلية[1] .

اشتهر الفن الإسلامي المعماري بالأندلس أيضاً بفن الرسم بالفسيفساء[*] حيث كان سقف جامع قرطبة قد استخدم هذه الطريقة لتزيين الجران والأعمدة الرخامية، واستخدمت الفسيفساء الخزفية في بلاطات الملوك.

وفُصل بين الألوان بأشرطة أو تركيبات بارزة فيما بعد، وقد استغل الطراز الإسلامي العربي في مناطق أخرى، حيث كان الصنّاع المغاربة يعهد إليهم بأعمال كثيرة، كالأسقف الخشبية المحفورة أو المكعبة وبخاصة المدرجة الخلايا إلى أن تم اندماجهم في العهد الجديد[2].

ولم تكن الفسيفساء الوسيلة الوحيدة للإبهار في الزخرفة؛ بل استعمل الفنان المسلم الرسوم الجدارية، والتي عبّر من خلالها وبطريقة مباشرة خاصة في العمائر الدينية من قصور واستراحات، ويتجلى ذلك بوضوح في قصور بني أمية في قرطبة مثل قصر الرصافة وقصر قرطبة[3] .

إن التأمل في أعمال أخرى من الفن الإسلامي يؤدي في العادة إلى انطباعين : الغياب العملي لتمثيل الأشكال الحية وطغيان الأشياء المفيدة والمترفة في غالب الأحيان، كالمنسوجات والسيراميك والزجاج والأشغال المعدنية، وإن كلاً من هذين الانطباعين صحيح .

إن الوظيفة الفنية للكتابة كإحدى أساسيات الفن المعماري الإسلامي لم تكن لتنحصر في الخصائص الجمالية للخط على أية حال؛ بل إن اختيار النصوص ولا سيما لكتابتها على الأشياء أو لاستعمالها للفن المعماري كان يؤدي وظيفة الأيقونات أيضاً.

كما أن فن الخط علاوة على دلالاته الشعائرية والأدبية كان له في الفن العربي الإسلامي هدف جمالي ثالث، فحين غمر مزينو قصر الحمراء جدرانه بتكرار لا نهاية له من الصيغ مثل (لا غالب إلا الله) ونقش

1 – عيسى الناعوري، مرجع سابق، ص ص 111، 112.

* – الفسيفساء: كلمة مشتقة من اللغة اليونانية والمقصود بها: الموضوعات الزخرفية المؤلفة بوساطة جمع أجزاء صغيرة ومتعددة الألوان من الزجاج أو الحجر، وتثبيتها بعضها إلى جانب بعض، فوق الجص أو الاسمنت، وقد تكون هذه الموضوعات الزخرفية هندسية أو نباتية أو رسوم كائنات حية والأغلب أن تكون تلك الأجزاء الصغيرة مكعبات دقيقة. ينظر: زكي محمد حسن، فنون الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1948م، ص643.

2 – ارنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة احمد موف، دار الصادر، بيروت، 1966، ص134 .

3 –محمود إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص194 .

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

الصنّاع المهرة عبارة (هذا من فضل ربي) فإن ذلك لم يكن فقط حشواً شعائرياً، بل كان غرضهم استحضار تلك الفكرة الإسلامية الجوهرية التي تقول بأن كل المخلوقات وكل الأعمال لا تكون إلا بمشيئة الله[1] .

كان للفن الإسلامي المعماري في قرطبة التأثير الأكبر في بناء قواعد الفنون الزخرفية في الأندلس، بل إن قرطبة حتى بعد أن سقطت واستردها المسيحيون لم تتوقف عن مد فنون الأندلس بموجات من تأثيراتها حتى بلغ فن الزخرفة ذروته في الإفراط والفخامة والتعقيد.

كان لمسجد قرطبة النصيب الأكبر من الاهتمام به فقد تعاقب عليه أكثر من ثمانين أميراً وملكاً، وكل واحد منهم أضاف إليه شيئاً جديداً، وزاد شيئاً في زينته وزخرفته مما زاد من روعته وجماله حتى أصبح يلقب الجامع المعجزة .

كما يعتز القرطبيون الإسبان اليوم بتاريخ مدينتهم العربي، وحضارتها القديمة الزاهرة، وقد أقاموا التماثيل في شوارعها وعند أسوارها لعدد من عظمائها العرب المسلمين ومنهم ابن حزم، وابن رشد، والفيلسوف اليهودي العربي ابن ميمون[2] .

3- الدور العلمي والثقافي للفن المعماري الإسلامي في مدينة قرطبة:

في عهد بني أمية تطورت الحركة العلمية والثقافية في مدينة قرطبة فأصبح اسمها مرتبط بالعمل والعلماء، فهي أكثر مدن الأندلس كتباً وأهلها كانوا يهتمون بالكتب وتخزينها وكانوا يتنافسون على أن يكون كل واحد منهم الأكثر علماً وأن تكون له خزانة للكتب في بيته[3] .

وقد برز في قرطبة كبار العلماء في مختلف العلوم وأشهرهم: أبوبكر بن عمر المعروف والمشهور بلقب (ابن القوطية)، كان له عدة مؤلفات ومن كتبه (تاريخ افتتاح الأندلس) [4] .

وكان الدور الأكبر في ازدهار الحياة العلمية والثقافية في مدينة قرطبة يرجع لتشجيع الخلفاء والملوك والأمراء للعلم والعلماء، حيث كانوا يشجعونهم على العلم ويقربونهم إليهم، مما زاد من حماسهم وحبهم للعلم، فساهموا في بناء المؤسسات التعليمية كالمدارس والمساجد والجامعات والمكتبات، فأصبح لهذه المؤسسات الدور الأكبر في النهضة العلمية في قرطبة بشكل خاص والأندلس بشكل عام .

1 - عبدالكريم محفوظ، مرجع سابق، ص168 .

2 - عيسى الناعوري، مرجع سابق، ص ص 63-64.

3 - احمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، دار الفكر، بيروت، ط1، ج2، 1998م .

4 - ابن خلكان أبو العباس شمس الدين احمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج2، ص336 .

ومن هنا كان للفن المعماري الإسلامي الدور الأكبر في بروز وتخريج العديد من العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء من خلال إنشاء تلك المؤسسات والمباني، فكان للمساجد في مدينة قرطبة الدور الأكبر في ذلك من خلال تدريس الطلاب أمور الدين الإسلامي وتحفيظ القرآن وتعليمه، إضافة إلى المدارس التي يتعلم فيها كل أنواع العلوم المختلفة، كما أنشأوا المكتبات التي كانت تحوي عددا كبيرا من الكتب أهمها مكتبة قرطبة[1].

1 – حامد الشافعي، الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء، 1998.ص30 .

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

الخاتمة:

من خلال هذا البحث المتواضع نستخلص أن الفن الإسلامي المعماري هو فن أصيل، لم يكن الهدف منه التصميم المعماري فحسب، بل كان يحمل معنى روحياً وجمالياً والتعبير عن عظمة المجتمعات الإسلامية.

والفن الإسلامي والمعماري في الأندلس عامة وقرطبة خاصة اعتمد على النقش بالخطوط خصوصاً الخط الكوفي كما في عهد الأغالبة كذلك اعتمد على النقش الزخرفي فاستخدموا النقش المجسم مع الزخرفة في مجموعتها بأكثر دقة وعناية، وينتظم هذا النقش في شكل شرائط تحيط بالمحراب والأبواب والنوافذ .

كما تجلت عظمة الفن الإسلامي العربي والهندسة المعمارية الإسلامية في مسجد قرطبة الذي يعتبر أيضاً مرحلة في حد ذاتها من مراحل التطور، وغن هذا التطور سوف تفضي إلى ولادة مساجد ومدارس لا تقل روعة عن مسجد قرطبة .

وتوصل البحث للنتائج الآتية:

1- إن الفن المعماري الإسلامي الأندلسي كان نتاجاً للتعايش الذي كان قائماً بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية في الأندلس.

2- إن التعصب الديني للإسبان لم يمنعهم من تقدير إبداعات الفن العربي الإسلامي.

3- إن التقاليد الإسلامية في فن العمارة كانت من القوة بحيث فرضت عناصرها على عناصر العمارة المسيحية.

4- جاء الفن الإسلامي بأول مدرسة حديثة هي المدرسة التجريدية لفن العمارة وفن الزخرفة وفن الخط والديكور .

5- معظم أعمال المسلمين في فن العمارة وفن الزخرفة تشيد بمصادرها العربية الإسلامية يتضح ذلك في أهم المعالم المعمارية الإسلامية في مدينة قرطبة.

6- عن طريق المعماريين المسلمين انتشرت عناصر معمارية وزخرفية في عدة مناطق ودول مجاورة.

7- يعد مسجد قرطبة هو المعمار الأضخم والأروع كأهم رمز من رموز العمارة الإسلامية .

قائمة المراجع

أولاً المصادر:

1-ابن خلكان أبو العباس شمس الدين احمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.

2-احمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، دار الفكر، بيروت، ط1، ج2، 1998م.

ثانياً : المراجع :

3-السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986.

4-ارنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة احمد موف، دار الصادر، بيروت ، 1966.

5-جوفاني كوراتولا، الأطوار الكبرى للفن الإسلامي، جاكابووك، ميلانون، 2018. .

6-حيّان صيداوي، الإسلام وفئوية تطور العمارة العربية، دار المتنبي، بيروت، ط1، 1992.

7-حامد الشافعي، الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء، 1998.

8-زكي محمد حسن ، فنون الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1948م.

9-صلاح خالص، اشبيلية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية تاريخية، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

10-عبدالكريم محفوظ، عبقرية الحضارة العربية، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1990.

11-عز الدين المناصرة، لغات الفنون التشكيلي، قراءات نظرية تمهيدية، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2005.

12-عيسى الناعوري، في ربوع الأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1978م .

13-مجموعة باحثين، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، مركز تبادل القيم الثقافية مع منظمة الأمم المتحدة.

14-محمد عبدالعزيز مرزوق، الاسم والفنون الجميلة، مكتبة الأسرة، 2015م.

15-محمود إبراهيم حسين، الارابيسك، دراسات في الحضارة العربية والفنون الإسلامية، مكتبة الفلاح، بيروت، ط1، 1996م.

16-وجدان علي بن نايف، الامويون، العباسيون، الأندلسيون، سلسلة التعريف بالفن الإسلامي، دار البشير، عمان، 1988.

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)

الملاحـــــــــــــق

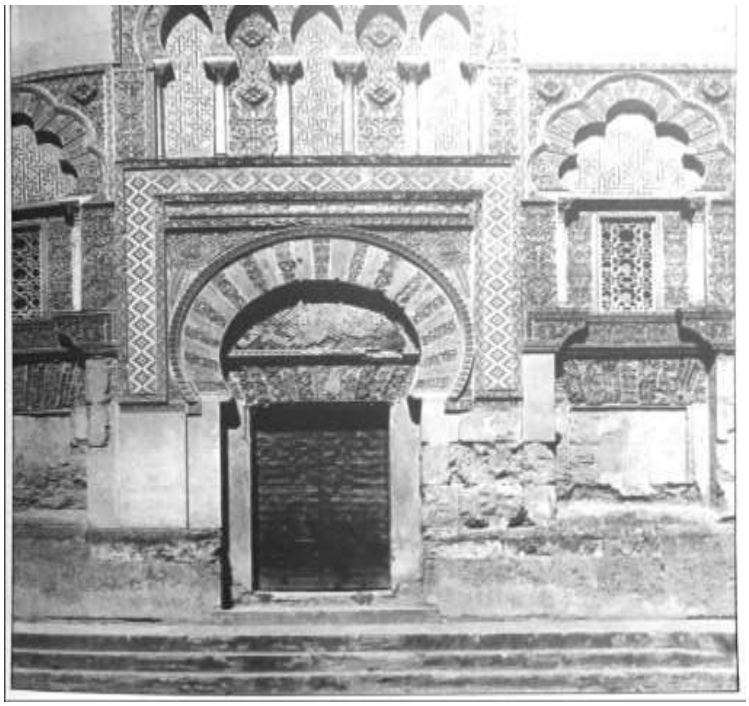

نقش كوفي على إطار محراب مسجد قرطبة (989م/379هجري)

جانب من بيت الصلاة في مسجد قرطبة

القبة الرئيسية الواقعة قبل المحراب في مسجد قرطبة

فن الزخرفة والخط العربي

ISSN 2710-4478 (Online) ISSN 2710 -446× (Print)